

حماية الطالحين

بحث علمي اجتماعي

للأستاذ اسماعيل مظهر

في أواسط القرن التاسع عشر أصابت العلم هزة من تلك الهزات العنيفة التي تغير مجرى الفكر ، وتقلب آيات العلم بعد أن ينجح إلى الناس أن المعرفة قد قامت على قواعد الرسيية ، رأساً على عقب . ففي سنة ١٨٥٩ نشر العلامة شارلز روبرت دروين كتابه « أصل الأنواع » فأقام الحجة البالغة على أن الأنواع تنشأ في الطبيعة بعضها منظور عن بعض على مر عصور متطاولة ، وأن نشوء الحياة من فوق الأرض موغل في القدم

ولقد أقام دروين نظريته على ثلاث قواعد أولية ، هي التناحر على البقاء ، والانتخاب الطبيعي ، وبقاء الأصلح . أما التناحر على البقاء فاصطلاح مجازي يؤدي في أوسع مدلولاته معنيين : فاما أنه يدل على الملافة القائمة بين الأنواع الحية المائشة في بيئة ما ، إذا ما اتجهت الأسباب العاملة على بقاء نوع إلى إبادة آخر أو إفناءه ، وإما أنه يدل على الجهد الذي يبذله الأحياء في سبيل الحصول على مقومات الحياة ، كقاومة العوامل والمؤثرات المفقنة للأفراد أو المبيدة للأنواع . أما الانتخاب الطبيعي فحصله أنه يبق من أفراد الأنواع أو السلالات أقدرها على الحياة في بيئة ما وأن تقوى غير القادرة منها على البقاء . ولما كانت القدرة على البقاء وتخليف المثل ، إنما ترجع إلى صفات حيوية تتأصل في الأحياء ، نشأ بالانتخاب الطبيعي تدريجياً على مر الأزمان سلالات وأنواع جديدة ممتازة بصفات معينة ثابتة . وقصد باصطلاح بقاء الأصلح أن الأحياء تتكاثر بنسبة رياضية . أي بنسبة ٢ : ٤ : ٨ : ١٦ وهكذا ؛ فإذا لم يهلك معظم نتاجها بموارض طبيعية ضاقت الأرض عن أن تسع الأحياء . ولذا لا يبق من الأحياء إلا أصلحها أو أقدرها على البقاء ومقاومة الموارض . وما « بقاء الأصلح » في الواقع إلا اصطلاح يراد به إبقاء عمل الانتخاب الطبيعي المقضى أن الأحياء التي هي أكثر صلاحية للبقاء في

بيئة طبيعية تظل حية امنتج أمثالها ، في حين يغنى غير الصالح منها على هذه القواعد الثلاث شرع دروين مذهبه الذي غير اتجاه العلم الطبيعي برمته في أواسط القرن الماضي . أما الذين اكبوا على دراسة الاجتماعيات فقد تساءلوا : إذا كانت سنة الطبيعة الثابتة تقضى ، لخير النوع وبقائه واحتفاظه بمستوى خاص من الحيوية والقدرة على مجالدة الأعاصير والأعداء ، بأن يغنى الطالح من نتاجه وألا يبق إلا الصالح ، فإن المدنية الحديثة بما تحوط به الطالحين من أسباب الحماية من الهلاك والفناء ، إنما تقاوم سنة الطبيعة الثابتة ، تلك السنة التي تقضى بأحد أمرين : فاما هلاك بصيب الطالحين ليفوز الصالحون بتخليف النسل فيحتفظ النوع بحيويته وبمثله العليا من حيث القوة والجهد ، وإما فساد بصيب طبيعة النوع بالبقاء على الطالحين الذين يورثونه كل الصفات التي يدرکہا الاحيائيون بين الأطلح والأصلح

ولنضرب لذلك مثلاً تقتطعه من حالاتنا الاجتماعية . فلقد استطاع الفلاح المصري أن يقاوم ثلاثة أشياء ، تسلط واحد منها على شمع غلت يد الطبيعة عن تزويده بمزايا الانتخاب الطبيعي ، كافية للقضاء عليه : فساد الحكومات ، والأمراض ، والحروب ، فلقد توالى على هذا الفلاح دورات من استبداد الحكومات منذ عهد الفرعنة إلى الآن ، لا يروى تاريخ أية أمة من الأمم لها شبيهاً . وازدياد عدد السكان في مصر الى عشرين مليوناً في عصر من المصور الى ثلاثة ملايين في عصر محمد علي ، دليل قاطع على عظم ما عانى هذا الشعب من عوامل الافناء وبرهان على ما فيه من حيوية استمدتها من البيئة الطبيعية ومن حالته الماشية التي ظلت متروكة لحكم الطبيعة فيه الآلاف من السنين . وليس لي هنا أن أتكلم في الأمراض التي سكنت جسم هذا الفلاح منذ أقدم المصور وأخصها (البلهارسيا) وقد استدل على وجودها بالموميات المحنطة من أقدم المصور : أما الحروب فيكن أن تعرف أن الجيش المصري حارب في خمس وأربعين وقعة تحت لواء قائدنا العظيم ابراهيم وحده في فترة لا تزيد على ثلاثين عاماً . فما بالك بالمصور التي هدمت فيها الامبراطورية المصرية ثم بنيت على أكتاف هذا الفلاح منذ ستة آلاف خلون من الأعوام ؟ هذه الظاهرة نحملنا على أن نتساءل ما هو السر الذي جعل

أقول إن كل اصلاح اجتماعي لا يموض على الفلاح ما سوف يسلب من فعل الطبيعة ، اصلاح هو الى الفساد أقرب شئ ،

ولقد بحث هذا المشكل الاجتماعى لحول من معاصرى الاجتماعيين ، وزكى بمخونهم فئة من كبار الاخصائيين فى أوروبا وأمريكا ، ولقد بان لهم بأجلى دليل أن الحماية المصطنعة التى حدد بها العلم من فعل الطبيعة فى الطالحين ، أى غير القادرين على البقاء فى البيئة الطبيعية ، لولا تلك الحماية ، سبب من أكبر الأسباب التى ولدت ما يظهر على أكثر شعوب الأرض من مظاهر الهرم والضعف الحيوى ، حتى لقد لجأت ألمانيا وغيرها من ولايات أمريكا المتحدة والجزر البريطانية التى تمقر طبقات خاصة من المجرمين والمتوهين والفاستدين توصلا الى طريقة عملية يموضون بها على الأحياء شيئا مما فقدت بالحماية المصطنعة من فعل الطبيعة والخضوع لسننها الثابتة

من هذه البحوث بحث ألقاه لورد « دوسن » Dawzan فى الجمعية الطبية بمدينة يورك نشر بعنوان « الطب والتقدم الاجتماعى » تسأل فيه عما إذا كانت النزعة التى تنزع بنا الى حماية كل الأطفال الذين يولدون من قضاء الطبيعة فيهم ، مهما كانوا طالحين غير قادرين على البقاء بغير حماية فعلية ، أمراً مناقضاً لما تنشأ من ارتقاء السلالات البشرية وخيرها فى مستقبل المصور . ففى خلال ستين عاما انخفضت نسبة الوفيات بين الأطفال من ١٥٦ فى الألف الى ٦٠ فى الألف ، وزلت فى الأطفال الذين هم فوق الخامسة من ٦٨ الى ١٨ فى الألف ، وزاد عدد السكان فى خلال هذه (الفترة ١٨٧٠ - ١٩٣٤) خمسين فى المائة عما كان قبلا

على أننا نستطيع أن ندرس الظواهر التى تنشأ عن مثل هذه الحالات ، إذا رجعنا الى أنواع أخرى تمايشنا فى الطبيعة . فقد نرى أن الأنواع الأخرى ، غير النوع البشرى ، وغير الأنواع الداجنة التى يكثرها الانسان لأغراض له فيها ، تحتفظ بنسبة ثابتة فى الأعقاب ، أى فى تخليف النسل ، وأنه كلما أخذت نسبتها فى الزيادة المدببة سلطت عليها الطبيعة عوامل ترداها الى النسبة التى لا تسمح بأكثر منها ، فقد لحظ أن ازدياد عدد نوع من الأنواع يصحبه دائما ظهور أمرين : إما زيادة فى عدد الأنواع المفترسة ،

هذا الفلاح على ما فى أسباب حياته من عوامل الافناء يصمد لموادى الدهر والطبيعة فلا يتقضى ولا يبيد ، بل تراه اليوم وقد خرج من معارك التناحر على البقاء منصوراً ، وعلى ضفاف نيله المقدس سبعة عشر مليوناً يفلحون أرض مصر ويتطلعون الى أسنى المثل التى أوجدها التصور الديمقراطى الحديث ؟

قد يتفق أن يقول بعض الذين لا يقوون على وصل أسلوب التفكير العلمى بأسلوب التفكير الاستقرائى إن ذلك راجع الى صفات خص بها الشعب المصرى دون غيره من شعوب الأرض التى عاصرتة . وقد يكون فى هذا الكلام بعض الحق ، فان للصفات الخلقية التى تتصف بها بعض الشعوب أثراً فى ذلك . ولكن إذا نظرنا فى الأمر من الوجهة الطبيعية الصرف ألفتنا أن السبب راجع الى أن هذا الشعب قد ترك للطبيعة معرضاً لمعاملها خاضعاً لقوانينها الحديدية منذ أبعد المصور . وظلت الطبيعة تتولى إنسالة بالانتخاب الطبيعى فتفتى غير القادر منها على البقاء ، وتبقى فى حلبتها الصالحين للبقاء ، فاستطاعت بذلك أن تحفظ على هذا الشعب قدراً من الحيوية ظل ثابتاً على مدار المصور . وقد ترى هذا الفلاح اليوم بسجنته السفعاء وجسمه النحاسى ، فما تقرأ فيه من آية إلا آية الطبيعة خطت على ملاحه الهادئة ؛ أما وداعة أخلاقه وصبره واحتماله وحدة نظرانه وذكاؤه الموروث ، فتحملك لأول وهلة إذا ما نظرت اليه أن تقول : هو ذا ابن من أبناء الطبيعة لم يَدْخُلْ فى فطرته بعد شئ من تزوير المدنية

ولا شك عندى فى أن تزوير المدنية لابد من أن يدرك فلاحنا بعد عهد قصير . فقد علت الصيحة فى هذا العصر بوجوب النظر فى ترقية الفلاح اجتماعياً . أما إذا كان الذين يصيحون هذه الصيحة لا يقصدون بها إلا أن يخرج الفلاح من تلك البيئة التى نشأ فيها الى بيئة مزورة ندعوها المدنية ، بأن نقل يد الطبيعة عن أن تدرك منه أغراضها الانتخابية ، وأن نمعل على حماية أولئك الذين كُتبت عليهم الطبيعة آية الفناء بأسباب اصطناعية ، فان ذلك سوف يكون أول عهد الفلاح بفقدانه الحيوية التى استمدتها من الطبيعة على مدار المصور وعلى تنال الأحقاب . ولم أدرس بعد كيف نستطيع أن نحمى فلاحنا من مفساد المدنية التى تقضى بإباده عن حكم الطبيعة فيه ، وإنما

التي يحاول بها دعاة المدينة والانسانية أن يصلوا من طريقها إلى حماية كل الأطفال الذين يولدون ، أليس في الافراط في اللجوء إلى هذه الوسائل معاندة للطبيعة . بأن نكثر من نسل أناس يتصفون بالضعف الأدبي والعقلي والطبيعي ؛ مثلنا في ذلك مثل أولئك الذين أرادوا أن يغالوا الطبيعة في تربية الشمو والنزال الأحمر ؟

وحجة الذين يميلون إلى الأخذ بالبول الانسانية في مثل هذه البحوث العلمية ، أن نسبة الزيادة في عدد السكان آخذة في التناقص شيئاً بعد شيء ، وقد تقف عند حد خاص بعد زمن وجيز ؛ فلا سبب إذن للارتعاج والتشاؤم ؛ غير أن هؤلاء انما تنسب عنهم حقيقة رئيسية ، هي أن نسبة زيادة عدد السكان إن كانت قد أخذت في النقص ، فانه نقص معكوس الآية ، ففي منتصف القرن التاسع عشر كان التجار وأصحاب الحرف الفنية من ذوي الأسر العديدة الأفراد ، في حين أن كبر أسرات رجال الدين كان مضرب الثقل ، فاذا وعينا أن متوسط عدد أفراد الأسرة في أمة تريد الاحتفاظ بكيانها لا ينبغي أن يقل عن أربعة أنفس ، ذاكرين أن هنالك أسراً قد تظل عقيم ، وأخرى تصاب بالشكل ، وعلنا أن عدد الأسرة في طبقتي الأطباء ورجال الدين لا يزيد عن اثنين ، علنا أن اطراد النقص في عدد السكان انما هو اطراد عكسي . ذلك بأن هذه النسبة تقيد الطبيعة من ناحيتين : الأولى اعقاب النسل بالنسبة الطبيعية ؛ والثانية عدم ترويد الطبيعة بمادة للانتخاب ، اذ تمزج الناج لتبقى على الأصلح هذه هي الحالات التي يقع تحت سلطانها انسان القرن العشرين ، فهل من سبيل إلى انتقاها ؟ يقول لورد « دوسن » إن انتقاءها مرهون على شرطين : الأول نشر المعلومات التي تتعلق بضبط النسل ؛ والثاني التعديل الاختياري . أما الشرط الأول ، وهو شرط قد تحقق منه شطر عظيم بذبوع الوسائل التي تضبط النسل ، فان عليه اعتراضاً ذا خطر عظيم ، هو أن الذين يجنحون إلى ضبط النسل إنهم أولئك الذين تعتبرهم زهرة المجتمع الانساني من أصحاب العقول الراجحة والمزاي الفذة ، في حين أن غيرهم من الطبقات الدنيا والطحالين يتناسلون جهداً ما تبلغ استطاعتهم . وفي ذلك مشكل هو بذاته أنكي من حماية غير القادرين على البقاء بالطرق الاصطناعية . فان قلة نسل الأولين وازدياد نسل الآخرين مفسدة سوف تسرع يعض الجماعات إلى درجة من الانحطاط

وإما ازدياد في الأمراض . وفي هذه الحالة لا يبقى من أفراد الأنواع إلا أقدمها على البقاء وأصلحها لأعقاب نسل يرث ما فيها من صفات تمكن النوع من الاحتفاظ بذاته ، فاذا صدت الطبيعة عن أن تقضى في نوع بحكمها . هذا ، ترتب على هذا انحطاط يظهر في أعقاب هذا النوع

والثل على هذا عديدة ، تقتصر على ذكر مثالين منها ، فقد حدث أن حاول أهل سويسرا أن يحرموا نسل حيوان يكثر في جبالهم يدعى (الشمو) Chamois وهو فصيلة من الانعاميات Ungulata لها قيمة تجارية ، فأسروا عدداً منه في داخل مكان متسع أحيط بكل أنواع الحماية ، وبخاصة من الذئاب التي هي أنكي أعداء هذا الحيوان . فكانت النتيجة المحتومة أن ظهر في هذا النسل المأسور صفات انحطاطية بينة ، وكثر فيه عدد الأفراد المهزولة الضعيفة ، وبدأت عليه كل علامات الانحلال الحيوى ، حتى اضطر المربون في النهاية أن يدخلوا إلى مكان الأسر عدداً محدوداً من الذئاب المفترسة ، فوجدت هذه الذئاب في الأفراد المنحطة فرائس يسهل اقتناصها ؛ وبعد قليل استعادت البقية الباقية كل الصفات المثالية التي عتاز بها النوع في مراهيه الطبيعية أما في زيلاندا الجديدة فقد تكررت هذه الظاهرة بينها ، والمعروف أن هذه الجزر من أمثل بقاع الأرض مناخاً وطبيعة لتربية الأنعام خاصة ، وذوات الثدي عامة ، ذلك بأنها خالية من الحيوانات المفترسة خلواً تاماً . فلما أن استوطنتها الايقوسيون حسن لديهم أن يدخلوا إليها عدداً من النزال الأحمر الذى يعيش في جبالهم العليا ، فكانت لهذا الحيوان أمثل مباءة ، فتكاثر واكثر لحماً ، ولكن بان لهم بعد قليل من الزمن أن النوع الذى جلب من أتيويا مملوء حيوية ، محتفظ بأسمى الصفات التي يتسم بها في مراهيته ، قد ظهرت بينه أنواع انحرفت عن صفات النوع المثالية . فكانت أضعف بنية وأقل مقدرة على المدو ، وقد شوه منظرها الخارجى بصفات لم يكن لها من وجود في أسلافها ، أما الدواء فكان إدخال عدد من الذئاب المفترسة القوية إلى الجزر ، كانت عدة الطبيعة في القضاء على الطالحين من نسل هذا الحيوان ، فاستردت البقية الصالحة ، بعد فناء غيرها ، كل الصفات الحيوية التي يتصف بها النوع في مراهيه أمام هذه الحقائق أخذ المصلحون يفكرون في تلك الوسائل